الهوية والتحرر في الفكر الإفريقي

هاجر حمداوي
طالبة بسلك الدكتوراه بالمعهد العالي للإعلام والاتصال بالرباط
المغرب

ملخص:

يتناول هذا البحث مسألة الهوية الإنسانية بوصفها عنصراً جوهرياً في تكوين الفرد والجماعة، ويقاربها من منظور فلسفي وثقافي متعدّد، انطلاقاً من تجارب مفكرين من منطقة الكاريبي وما تعكسه من تفاعل مع الإرث الاستعماري، مروراً بآراء مفكرين غربيين وعرب حول مفهوم الهوية والتحرر.

يركّز المقال على التحولات التاريخية والثقافية التي عرفتها منطقة الكاريبي نتيجة للاستعمار الأوروبي وتجارة الرق، ما أدى إلى تشكّل هوية هجينة متأرجحة بين الإرث الإفريقي والثقافة الأوروبية، وإلى بروز إحساس بالنقص والانفصال عن الجذور الأصلية. ومن خلال تحليل تجربة فرانز فانون، يُبرز المقال الصراع الداخلي للإنسان الأسود بين نظرة الذات ونظرة الآخر، وسعيه نحو استعادة الوعي بالذات الزنجية كخطوة أولى نحو التحرر من الإرث الاستعماري، في مقابل مواقف مفكرين كجان بول سارتر الذي دعا إلى الانفتاح على الثقافة الغربية.

كما يناقش البحث إشكالية الأصوليات والهويات القاتلة، مستلهماً أفكار أمين معلوف حول مخاطر الانغلاق والهويات الإقصائية، ليخلص إلى أن العالم المعاصر، في ظل العولمة والهجرات والصراعات الثقافية، في حاجة إلى مراجعة قيمه وتبني رؤية إنسانية جامعة تتجاوز الانقسامات الإثنية والثقافية.

يختتم المقال بالتأكيد على أن التحرر والحرية يظلان جوهر تطلعات الإنسان، وأن رحلة البحث عن هوية متصالحة مع ذاتها ومع الآخر لا تزال مساراً مفتوحاً ومستمراً في التاريخ الإنساني.

كلمات مفتاحية: الهوية، الأدب الزنجي، التحرر، الثقافة، الإرث الاستعماري.

البحث:

تعتبر الهوية من أهم مكونات الإنسان، ومن أهم مكونات الشعوب وكل الجماعات الإنسانية. فالهوية كمسقط الرأس، ضرورية لتوازن الإنسان وإحساسه بذاته وقيمته في هذا الوجود.

تتشكل هوية الإنسان انطلاقا من محيطه وعائلته وتكوينه وتجاربه الخاصة مع ذاته ومع الآخرين. هوية الإنسان مرتبطة ارتباطا وثيقا بهوية محيطه، فهو يستمدها من: اللغة، الدين، التاريخ، الثقافة، العادات، الاعتقادات، التقاليد، الذاكرة المشتركة... فالهوية مهمة جدا في حياة الإنسان لأنها توفر له إحساسا بالانتماء، يعطي معنى لوجوده ولوجود الآخرين.

كل منطقة بالعالم تمتاز بهوية خاصة بها وداخل كل هوية هناك هويات شتى. لأوروبا الغربية هويتها ولأوروبا الشرقية هوية مختلفة تمتاز بها. هوية أمريكا الشمالية قريبة من هوية أوروبا الغربية لكن لها خصائصها. أما داخل آسيا، فالهويات متعددة تعدد اللغات والبلدان... لإفريقيا هويتها، لكن المنطقة المغاربية تشترك بالعديد من الخصائص مع باقي المناطق العربية...ولأمريكا الجنوبية والوسطى هويات تميزها.

خلال هذا البحث، سنتطرق لأفكار وتمثلات مفكرين من منطقة الكاريبي بأمريكا الوسط، لكننا لن تقتصر على أفكارهما فقط، بل سنتناول كذلك أطروحات مفكرين غربيين وعرب حول مسألة الهوية والتحرر.

منطقة الكاريبي عبارة عن مجموعة جزر تقع بوسط القارة الأمريكية ومحاطة بالبحر الكاريبي الذي هو جزء من المحيط الأطلسي. تضم منطقة الكارايبي دولا صغيرة مستقلة مثل: هايتي، الجمهورية الدومنيكية، الباهاماس... وتضم مستعمرات أوروبية وأمريكية مثل: المارتينيك التابعة لفرنسا، أنغويلا التابعة لبريطانيا، بورتو ريكو التابعة للولايات المتحدة...

قديما، كانت منطقة الكارايبي موطنا لحضارات قديمة تم طمس أغلب آثارها بفعل الموجات الاستعمارية المتكررة لهذه المنطقة. فقد تم استعمارها من طرف الإسبان والفرنسيين والإنجليز، ما جعلها من أكثر المناطق تعددا لغويا وإثنيا. شعوب الكارايبي أغلبها مزيج من السكان الأصليين للمنطقة (الهنود الحمر) والأوروبيين الذين استعمروها والأفارقة السود الذين جلبهم المستعمر عن طريق الرق للعمل في الزراعة والبناء...

لذا، فالكاريبي عبارة عن مزيج من كل هذه الثقافات، لكنه لم يكن مزيجا عادلا، لأنه بفعل الاستعمار تم القضاء على جزء كبير من ثقافة الهنود الحمر سكان المنطقة الأصليون، وبفعل الرق، تم استقدام أفارقة من أوطانهم لهذا الوطن الجديد، وبالتالي فقدوا كل صلة مع لغاتهم وثقافتهم الأصلية[1]. كل هذه العوامل أدت إلى فراغ ونقص هوياتي شعر به سكان الكاريبي الجدد الهجناء Hybrid. ويطلق على هؤلاء السكان أحيانا مصطلح Creole، أي السكان المختلطون من أصول أوروبية وإفريقية أو أوروبية وهندية. نتج عن هذا الفراغ الثقافي محاولة سكان الكاريبي تقليد المستعمر الأوروبي Mimicry في اللغة ونمط العيش وفي المظاهر الثقافية[2]. يمكننا اعتبار هذا الأمر على أنه تأثر شديد بالمستعمر الذي حمل ثقافة أخرى ويتسم بالقوة، فالمغلوب مولع باتباع الغالب، كما قال ابن خلدون في مقدمته.

لكن، لكل قاعدة استثناء، فقد حدثت للعديد من سكان الكاريبي صحوة ثقافية وفكرية جعلتهم يطرحون ألف تساؤل وتساؤل ويعيدون النظر في كل ما يحيط بهم، في تاريخهم، في واقعهم، في أقاويل المستعمر، وفي اعتقاداتهم الشائعة... وبهذا الصدد، حكى المفكر المارتينيكي فرانز فانون كثيرا عن تجربته الوجودية في إعادة اكتشاف ذاته وواقعه. فرانز فانون مفكر وعالم نفس وسياسي درس بفرنسا وعاش فترة بالجزائر. كتاباته بالفرنسية وتتناول مواضيع: الهوية، الزنوجية، الاستعمار، التخلي عن الإرث الاستعماري، الوعي بالذات، وعي الشعوب بثقافتها... في إحدى كتاباته، يحكي فانون عن الواقع اليومي للزنوج بالمارتينيك وعن علاقتهم بالأوروبي الأبيض[3].

عن طريق التفكير وتحت تأثير أستاذه Aimé Césaire، تولد لدى فانون وعي بزنوجيته وبذاته، فعبر عنها بشكل مطول وبعدة أساليب وسرد أدق تفاصيل هذا الوعي. يقول فانون أنه عندما كان داخل جماعته من الزنوج، كان ينظر لنفسه من خلال أمثاله وذلك لم يكن كافيا

لوصوله لوعي تام بذاته. نفس الأمر كان يحدث عندما كان بمعية المارتينيكيين المختلطين Creoles (من أصل إفريقي وأوروبي أو هندي وأوروبي) لأنهم لم يكونوا مختلفين عنه كثيرا، وكانوا يعيشون تقريبا نفس الواقع. لكن الأمر تغير تماما عندما قابل فانون الانسان الأبيض لأول مرة. فنظر لنفسه من خلال نظرات الإنسان الأبيض. كانت تلك التجربة الوجودية بمثابة صحوة بالنسبة لفانون، فنظرات الإنسان الأبيض له المتعالية أحيانا والمتعاطفة أحيانا أخرى، شكلت صدمة له وأشعرته بأنه مختلف، ثم اكتشف "واقع زنوجيته"[4].

بعد هذه الصحوة الفكرية ووعي فانون بزنوجيته وبخصوصية جماعته، أصبح من أشد المدافعين عن الزنوجية وبدأ يدعو لإعادة اكتشاف أصول وثقافة الزنوج، وتوطيدها من خلال الكتابات واللقاءات والنقاشات، والتعريف بهذه الثقافة والتشبث بها، وإظهارها للعالم لمواجهة ثقافة الإنسان الأوروبي الطاغية ومواجهة التمركز الأوروبي.[5] كما دعا فانون لتحرير الزنوج من ثقل الإرث الاستعماري، على كل المستويات: الثقافية، الاجتماعية والسياسية.[6]

أفكار فانون لاقت صدى واسعا لدى القراء ولدى العديد من المفكرين والكتاب الزنوج والغربيين. من بين هؤلاء، الكاتب والمفكر الفرنسي جون بول سارتر. كان سارتر من أشد المدافعين عن استقلال الشعوب ومناهضا للاستعمار. فقد أثنى سارتر كثيرا على الأطروحات الداعية للعودة لثقافة الزنوجية والتشبث بها من طرف الزنوج، لكنه قال كذلك أنه على الزنوج، بعدما، أعادوا التعرف على ثقافتهم الأصلية، الاندماج مع الثقافة الغربية والانفتاح على العالم، حتى لا يبقوا منعزلين داخل ثقافتهم، غير منفتحين على العالم الخارجي.[7]

كان رد فانون على سارتر حاسما، فقد لام سارتر على محاولته نزع ثقافته وهويته الزنجية منه بعدما فعل كل جهده للتوصل إليها وإعادة اكتشافها، وبعدما أصبح العالم يعترف بها شيئا فشيئا وأصبح للزنوج هويتهم التي يعتزون بها[8]. فأكد فانون مجددا على زنوجيته بتعابير بالغة ودقيقة في وصف الشعور. وصف فانون نظرات الإنسان الأبيض له، إحساسه بالاختلاف والإقصاء جراء رفض الإنسان الأبيض له، فيقول فانون أنه كلما فتح ذراعيه للآخر وللعالم، قُوبل بالرفض وبالنفي.[9]

ربما كان سارتر يخشى أن يتحول الزنوج الذين يتبنون "الأصولية الزنجية" إلى أناس يحملون فكرا إقصائيا. فبسبب معاناة الزنوج لعدة قرون من الاضطهاد والعنصرية، أصبح لديهم تخوف وربما حقد أيضا اتجاه الإنسان الأبيض، الذي يمثل بالنسبة لهم المستعمر والمضطهد والعنصري. فظن سارتر أنه قد تتولد ردة فعل إقصائية لدى الزنوج اتجاه كل الثقافة الغربية والأوروبية. لذلك، قال سارتر بأنه يجب عليهم الانفتاح على الثقافة الغربية وترك النزعة الأصولية جانبا.

النزعات الأصولية قد تصل أحيانا لمرحلة نفي الآخر وإقصائه. وهذا ما عبر عنه الكاتب أمين معلوف في كتابه "الهويات القاتلة". يقول أمين معلوف إن الهويات تصبح قاتلة عندما تستند لأسس قبلية، فتضع "نحن" في مقابل "هم"، في مقابل الآخر، أي أنها تصبح هوية تتغذى على نفي وإقصاء الآخر، على رفضه، فيكون شعارها يا إما نحن أم هم، يا أن ننفي الآخر أو ننفي أنفسنا.[10] فالهوية القاتلة تتغير من إفراط إلى تفريط، من أصولية وتطرف إلى انحلال تام من الهوية.[11] وهنا يلعب الأشخاص المتعددو الهوية دورا مهما في الربط بين الهويات المتعددة والمختلفة، رغم أنهم يكونون أول ضحايا هذا الفكر القبلي الإقصائي.[12]

في الآونة الأخيرة، بدأت تظهر النزعات الأصولية مجددا في كل القارات والبلدان بسبب عدة عوامل، من أهمها العولمة، الهجرات العالمية... وقد نشبت عدة ثورات كالثورات العربية التي بدأت عام 2011، كما اندلعت حروب في بلدان كسوريا والعراق، وازداد عدد اللاجئين والمهاجرين في العالم. من بين نتائج هذه الأحداث، تنامي تأثير اليمين المتطرف في أوروبا وأمريكا الشمالية، ووصول عدة مرشحين في العالم الغربي من هذا اليمين. يبدو واضحا أن العوامل الثقافية والإثنية لعبت دورا كبيرا في كل ما يحدث في العالم، فيحيلنا هذا إلى نظرية صراع الحضارات، التي تفيد بأن العالم تغير بعد انتهاء الحرب الباردة وأن الصراعات والنزاعات في العالم ستصبح قائمة على أسس حضارية، ثقافية وليس أيديولوجية واقتصادية كما في السابق.[13]

كما يسهم الإعلام بشكل كبير في ترويج الأفكار داعية للتسامح والسلم والأفكار الداعية للنزعات الأصولية والتفرقة بين الناس، حسب المنابر الإعلامية وتوجهاتها.

لهذه الأسباب، العالم في حاجة اليوم إلى إعادة تقييم لقيمه وأفعاله، وعلى كل الدول أن تعمل جاهدة على التخلص من الأفكار والإرث الاستعماريين، وأن تعمل جاهدة على تقليل الفروق الطبقية بين وداخل مختلف المجتمعات.

خلاصة القول، التحرر والحرية بغية ومنية كل إنسان، وكل الشعوب تتوق إليها. والأفكار التي تطرقنا إليها في هذا البحث ما هي إلا تعبير صريح ونقدي عن هذه الرغبة العميقة بالتحرر، وتعبير عن واقع معاش في تلك الحقبة ولازال يعاش في عدة مجتمعات، فرحلة التحرر لم تنتهي بعد.

الهوامش:

[1] Walcott, Derek. "The Caribbean: Culture or Mimicry?" Journal of Interamerican Studies and World Affairs 16, no. 1 (1974)

[2] Ibid.

[3] Fanon, Franz. "Black skin, white masks", Grove Press. (1967).

[4] Fanon, Franz. "Black skin, white masks".Grove Press, 1967.

[5] Fanon, Frantz. The wretched of the earth. New York: Grove Press, 2011.

[6] Ibid.

[7] Sartre, Jean-Paul, and Léopold Sédar Senghor. Black Orpheus. New York: French & European Publications, 2003.

[8] Fanon, Franz. "Black skin, white masks".Grove Press, 1967.

[9] Ibid.

[10] Maalouf, Amin. « Les identités meurtirères ». Grasset, 1998.

[11] Ibid.

[12] Ibid.

[13] Huntington, Samuel P. The clash of civilizations: and the remaking of world order. London: Simon & Schuster, 2002.